تسليم

مجلة فصلية محكمة

مختصة بعلوم اللغة العربية وآدابها

تصدر عن

العتبة العباسية المقدسة

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

السنة الاولى المجلد الثاني العددان الثالث والرابع

ربيع الثاني ١٤٣٩هـ . كانون الاول ٢٠١٧م

الترقيم الدولي
ردمد:2413-9173
ردمد الالكتروني:2521-3954
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية 2193 لسنة 2016 م
كربلاء المقدسة - جمهورية العراق

Tel: +964 032 310059 **Mobile:** +964 771 948 7257
http: //tasleem.alkafeel.net
Email: tasleem@alameedcenter.iq

"في التسليم للعترة الأطهار"

الاستهلال في مناجيات (الوسائل إلى المسائل) للإمام الجواد عليه السلام

Inception in Supplications (means to issues)
Imam Al-Jawad (Peace be upon him)

أ.م.د. علي مجيد البديري
العراق / جامعة البصرة / كلية الآداب
قسم اللغة العربية
Assist. Prof. Dr. Ali Majeed Al Budairi
Iraq / Basra University / Faculty of Arts
Department of Arabic Language

AL_budyri72@yahoo.com

تاريخ التسليم: ٣٠/ ٨/ ٢٠١٧
تاريخ القبول: ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٧

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص

يسعى هذا البحث لمعاينة فاعلية الاستهلال في مناجيات (الوسائل إلى المسائل) المروية عن الإمام محمد الجواد ﷺ ، وبيان صلاته بداخل النص وخارجه ، فبعد تحديد مفهوم الاستهلال ووظيفته في النص، توقف البحث عند دراسة ارتباط المناجيات بالسياق الخارجي لها، في المحور الأول من البحث الذي حمل عنوان (صلة الاستهلال بالسياق الخارجي للنص)، وكانت مساحة هذا السياق متسعة ، إلى الدرجة التي يصعب فيها وضع حدود نهائية لها .

أما المحور الثاني من البحث حمل عنوان (صلة الاستهلال بأجزاء النص الداخلية)، واعتنى بدراسة بنية الاستهلال ؛ فجُملُه تمتد لتكون حاضرةً بشكل طيفيٍّ في نسيج النص وأجزائه الأخرى، إذ تتشعب ويُنتظر منها أن تكون مولدةً لدلالات النص ونواة لها.

وانتهى الباحث إلى خاتمة سجلتْ أهم ما تم التوصل إليه من نتائج.

Abstract

This study seeks to examine the effectiveness of inception in the supplications of the Imam Muhammad Al-Jawad (peace be upon him) and shows the explicit and the implicit the text. After defining the concept of inception and its function in the text, From the research titled "Inception in Supplications (means to issues) Imam Al-Jawad". The scope of this context was so broad that it was difficult to set final limits.

The second axis of the research tackles the contextual sense and the structure of the beginning; the study concludes with the most important results .

توطئة

يكاد ينفرد الدعاء والمناجاة عن بقية أنواع النثر الفني بخصوصية كونهما نصين موجهين بالدرجة الأولى إلى الخالق تبارك وتعالى فهما ابتهال إليه بالسؤال ورغبة فيما عنده من الخير[1] ، ويعدّان في جوهرهما ممارسة عبادية غايتها تمجيد الله وتحميده ومناجاته والطلب منه.

وتأتي قراءة الداعي لنص الدعاء أو المناجاة في ما بعد ، تقمصاً للحالة الشعورية والروحية التي عاشها المنشئ ابتداءً ؛ ليتحقق البعد الأخلاقي من الدعاء بشكل ينعكس على عدّة الداعي الروحية إنماءً لها ، و إثراءً لعناصرها . ولذا فإن دراسة هذا النوع من النثر الفني تتطلب الالتفات إلى دور المتلقي الأول/ الداعي في تجلي الدعاء وتشكله الجديد ، وتباين ذلك من داعٍ إلى آخر لاختلاف في مستويات العدة والاستعداد النفسي ، وحضور هذا الدور ضمنياً في النص .

أما التلقي النقدي الذي يمكن أن تنضوي تحته هذه القراءة ، فيتطلب معاينة النص الدعائي بطريقة مغايرة ، هي أكثر تأملاً وأدق فحصاً وكشفاً عن جماليات النص ومكونات بنيته، ودلالة ذلك وأهميته في تعضيد وظيفته. ولعل الجزء الافتتاحي لمتن الدعاء من أهم هذه المكونات ، فتأثيره يتشعب بين خارج النص وداخله؛ و يكون إقبال الداعي مرهوناً بمدى قوة الاستهلال وتأثيره، ولا ينفصل في دلالته عن أجزاء النص الداخلية الأخرى . وهو ما ستشرع السطور الآتية إلى معاينته في عشر مناجيات وردت عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام (١٩٥هـ-٢٢٠هـ) في سياق خاص ، ربما يكون لدلالته تأثيرٌ موجِّه لنا في قراءة هذه النصوص؛ إذ ترسم لنا ملامح هذا السياق رواية السيد ابن طاووس في كتابه (مهج الدعوات) ، بإسناده إلى

أبي جعفر بن بابويه عن إبراهيم بن محمد بن الحارث النوفلي ، قال: ((حدّثني أبي، وكان خادماً لمحمد بن علي الجواد(عليهما السلام) : لمّا زوج المأمون أبا جعفر محمد بن على بن موسى الرضا عليه السلام ابنته ، كتب اليه : إنّ لكلّ زوجة صداقاً من مال زوجها ، وقد جعل الله أموالنا في الآخرة ، مؤجلة مذخورة هناك ، كما جعل أموالكم معجّلة في الدنيا وكثر هيهنا . وقد أمهرت ابنتك : «الوسائل إلى المسائل»، وهي مناجاة دفعها إليّ أبي. قال : دفعها إليّ أبي موسى ، قال :دفعها إليّ أبي جعفر، قال : دفعها إليّ محمد أبي، قال : دفعها إليّ علي بن الحسين أبي، قال: دفعها إليّ الحسين أبي : قال : دفعها إليّ الحسن أخي، قال : دفعها إليّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليهم أجمعين)، قال : دفعها إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : دفعها إليّ جبرئيل عليه السلام ، قال : يا محمد ربّ العزّة يقرئك السلام ويقول لك : هذه مفاتيح كنوز الدنيا والآخرة ، فاجعلها وسائلك الى مسائلك ، تصل الى بغيتك وتنجح في طلبتك ، فلا تؤثرها في حوائج الدنيا فتبخس بها الحظّ من آخرتك . وهي عشر وسائل الى عشر وسائل تطرق بها أبواب الرغبات فتفتح ، وتطلب بها الحاجات فتنجح وهذه نسختها))[٢].

تتأتى أهمية هذا النص من تأثيره المباشر والسريع في المتلقي وتأمينه لتداولية المناجيات العشر ، فهو يحفزه على القراءة ويحرضه على تكرارها، مادامت هذه النصوص تمس مفردات حياته و تجسد احتياجاته الحياتية ، فضلاً عن ارتباط آثارها الدنيوية بآثارها الأخروية ، وهو ما يعني ملازمة قراءة الدعاء لهذا النص التحفيزي وارتباطه به ، على الرغم من أن الداعي في مداومته على قراءة هذه المناجيات يبدأ بمتن المناجاة المخصوصة ويكتفي بما اختزنته ذاكرته من ملامح السياق الذي رويت فيه النصوص عن منشئها عليه السلام . ومن هنا سيكون لكل مناجاة ظرف خاص نسبياً

يحدده موضوعها الرئيس، وتثريه خصوصيةُ حاجة كل داعٍ ، ومدى تفاعله مع دلالات المناجاة ، وفضائها الروحي.

وعلى هذا، يمكن أن ننتهي إلى أن الحادثة المسببة لظهور هذه الأدعية المباركة، بوصفها نصاً موازياً له دلالته الموجِّهة للقراءة والفاعلة في تعضيد دلالات الأدعية المباركة، تضيء لنا طبيعة المتلقي الذي تتوجه إليه وتستهدفه، إذ تلبي هذه النصوص حاجات المتلقي اليومية فهي «وسائله» لمناجاة الخالق تبارك وتعالى حول «مسائله» الحياتية المختلفة، من هنا تكون أبرز مكونات ذخيرة المتلقي حاجته بالدرجة الأولى، التي منها يستمد قوة إقباله على تلاوة المناجاة وانفعاله بمضامينها، فالأخيرة ملجؤه ولغة حوائجه، وفيها ستمتزج حالته الشعورية بما فيها من تعدد مظاهر بين الشوق والحب ، وحرارة التوق إلى ظل الرحمة الإلهية ، والخوف والرجاء والحاجة مع فضاء المناجاة أو الدعاء ، فاستجابة الداعي بوصفه قارئاً مرهونة بتحقق هذا الامتزاج الذي يكون بدوره مرتبطاً باستحضار الداعي لسياق الدعاء الخارجي ، ودلالة عنوان كل مناجاة ، وارتباط المناجيات بمنشئها ، واستشعار الامتداد الزمني الطويل للقراءات المتصلة لجمهور لا يحصى من الداعين ، جسدوا تحققاته المختلفة عبر الأزمنة ، ليكون مهيئاً بشكل أكبر للدخول إلى فضاء المناجاة عبر جمل استهلالها ودلالاته.

مفهوم الاستهلال ووظيفته

لا يختلف اثنان حول أهمية المفتتح أو الاستهلال لأي نص أبداعي ، بل لا نكون مخطئين إذا ما قلنا بأهمية ذلك في النصوص العلمية الصرفة أيضاً ، وعلى وفق اشتراطات التعبير العلمي الخاصة . وقد وضحت عدة نصوص نقدية قديمة هذه الأهمية ، وأولتها عناية عبر الاحتكام إلى خصائصها في تحديد قوة النص من ضعفه ، لصلتها الشديدة بطبيعة التلقي الذي ستحدثه ، ولعل من أهم هذه النصوص ما حرص على تأكيده ابن طباطبا العلوي في قوله: ((اعتنوا باستفتاحات الفصول واجتهدوا في أن يهيأها بهيئات تحسن بها مواقعها في النفوس، وتوقظ نشاطها لتلقي ما يتبعها وما يتصل بها ، وصدروها بالأقاويل الدالة على الهيئات التي من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات لأمور سارة أو فاجعة أو شاجية بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك))[٣] ، ولا شك في أن ذلك ينطبق على فنون القول المختلفة كلهّا قديمها ، وحتى حديثها في ضوء رؤية معاصرة ، وإن كان هذا النص النقدي وأمثاله مختصاً بفن من فنون النثر القديمة أو بالشعر، فـ ((حسن المطالع والمبادئ دليل على جودة البيان ، وبلوغ المعاني إلى الأذهان ، فإنه أول شيء يدخل إلى الأذن ، وأول معنى يصل إلى القلب ، وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل))[٤] ، مع ملاحظة التباين في مستويات الجودة في هذه المطالع ، ((فإنه إذا كان حسناً كان مفتاحاً للبلاغة، وديباجة للبراعة، ولهذا فإنك تجد الافتتاحات في القرآن الكريم على أحسن ما يكون وأبلغه))[٥] ، مع مراعاة أن هذا التباين في مستوى قوة الاستهلال قد يحدث لدى كاتب واحد في نصوص عدة له ، فهو كغيره من أجزاء النص خاضع لأمور كثيرة ، ومرتبط بالتطور الأسلوبي الخاص بالكاتب أو بتقنيات الكتابة وجمالياتها في عصره.

من هنا كان للنقد الحديث رؤية أفاد فيها من التصورات الحديثة حول البنى التركيبية للنصوص الابداعية، إذ ترتبط فاعلية الاستهلال بتأثيره الجمالي على أجزاء النص الأخرى ، ومدى اتصاله بها جزءاً حيوياً له دوره الكبير ووظيفته الهامة. فصار ((لا بد للاستهلال من أن يكون بكلام توليدي ، ديناميكي ، فاعل ، الكلمة فيه مشحونة بالمعرفة والإحالة والتأويل))[٦] ، وهو ما يعني تشعب صلات الاستهلال بداخل النص وخارجه ، فجُملُه تمتد لتكون حاضرةً بشكل طيفيٍّ في نسيج النص وأجزائه الأخرى ، وينتظر منها أن تكون مولدةً لدلالات النص ونواة لها، ولذا صار ينظر إلى الاستهلال على أنه ((جملة كلمات ، أو كلمة واحدة لها من القوة ما لا يوجد لغيرها))[٧]. غير أن هذا الفضاء النافذ الواسع للاستهلال، وحضور المتلقي الهام في طريقة قراءته واكتشافه وتفعيله ، دفع بعض الآراء النقدية إلى أن تعدَّه نصاً موازياً للنص الأصلي ، له وظيفته ودلالته بوصفه موجهاً للقراءة و رافداً لدلالات النص ، والحال أن جزئيته من النص تجعله مختلفاً عن بقية النصوص الموازية الأخرى.

و في ضوء هذه الخصوصية سيكون الجزء الإجرائي من هذا البحث في قراءته للمناجيات العشر المسماة بـ(الوسائل إلى المسائل) ، مرتكزاً إلى القول بانتماء الاستهلال لبنية النص الكلية، فهو بدايته التي لا تنفصل عن بقية أجزائه ، من غير أن يعطل هذا الفهم وظيفة الاستهلال ودوره في إثراء الدلالة المتولدة عن صلاته بخارج النص.

صلة الاستهلال بالسياق الخارجي للنص

تنوعت موضوعات المناجيات العشر بطريقة استجابت فيها كل واحدة منها لمتطلب حياتي هام للمؤمن في أحواله المختلفة ؛ وهي على التوالي : (المناجاة للاستخارة ، المناجاة بالاستقالة ، المناجاة بالسفر ، المناجاة في طلب الرزق ، المناجاة بالاستعاذة ، المناجاة بطلب التوبة ، المناجاة بطلب الحج ، المناجاة بكشف الظلم ، المناجاة بالشكر لله تعالى ، المناجاة بطلب الحوائج) . وهي بهذا التنوع والشمول جسدتْ تفاعل الانسان مع الواقع ومتطلبات الحياة ، لذا فجمهور قرائها حاضرون فيها ، فهي تعكس انشغالاتهم اليومية منها والمصيرية التي تتعلق بحياة الآخرة ، بذلك ضَمِنَتْ المناجيات تفاعلاً قرائياً مستمراً معها ، ممتداً عبر الزمن ، مهما تعقدت أنماط الحياة وصورها ، لأنها مرتبطة بثوابت حاجات الإنسان في حياتيه الدنيوية والأخروية .

من هنا تتسع مساحة السياق الخارجي لهذه النصوص إلى الدرجة التي يصعب فيها وضع حدود نهائية لها ، وتشمل ظرف النصوص الخاص الذي ظهرت فيه ، فهي ، كما مرَّ بنا في بداية البحث ، بديلٌ عن صداقٍ مالي يُستعان به عادة على تأمين احتياجات بيت الزوجية ، غير أنّ ارتباط هذا السياق الخاص بالإمام الجواد ﷺ ، يجعل من حصر دلالات المناجيات بما هو عادٍ من متطلبات الحياة أمراً يضيق من قيمتها المعرفية ، فلابد من تأمل هذه الخصوصية المتأتية من طبيعة الوضع الذي عاشه الإمام الجواد ﷺ الذي اتسم بالتضييق عليه ومراقبته ، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن ذلك قد انعكس على طبيعة هذه استهلالات هذه النصوص بناءً وموضوعاً ، من مثل ما نجده في **استهلال (المناجاة بكشف الظلم)** :

((اللهمّ إن ظلم عبادك قد تمكّن في بلادك ، حتّى أمات العدل ، وقطع السبل ، ومحق الحقّ ، وأبطل الصدق ، وأخفى البرّ ، وأظهر الشرّ ، وأخمد التقوى ، وأزال الهدى ، وأزاح الخير، وأثبت الضير ، وأنمى الفساد ، وقوّى العناد ، وبسط الجور ، وعدى الطور.))[٨]

ويتصل الاستهلال هنا بما يمكن أن نسميه نصاً موازياً مضمراً ، أعتُمِد في تشخيص الظلم ، وهو الواقع الموضوعي الذي عاشه الإمام ﷺ إذ شهد مقتل أبيه الإمام الرضا ﷺ مسموماً على يد المأمون ، متصلاً بأحداث سبقته في مقاتل أجداده ﷺ ، وامتداد هذه المظلومية التي طالت شيعتهم ومواليهم إلى ما شاء الله. وهو ما انعكس على نمط الاستهلال بجمله القصيرة، وألفاظه البالغة القسوة في دلالاتها؛ فالظلم هيمن على الواقع عبر أفعاله القمعية، وتمكّن من بسط ظلامه، فهو قد (أمات، وقطع، ومحق، وأبطل، وأخفى، وأظهر الشر، وأزاح ... إلخ)، حتى غدا كشْف هذه الهيمنة محصوراً بسلطان الله وقوته وقدرته ، واللجوء إليه سبحانه.

وتتجسد سرعة انبساط هذه الهيمنة في تركيب الجمل القصيرة جداً، مرتكزة على مرجعيتها الخارجية المتمثلة بالواقع السيء، إذ ((تعتمد البنية الداخلية لأي استهلال على ثراء الخارج، التأويل والإحالات وإلا أصبحت أية جملة استهلالية سطحية المعرفة، محدودة الأفق، والخارج بمعناه الواسع، المجتمع، والناس وتجارب الآخرين، والتراث، وكل ما من شأنه أن يدخل عنصراً مفيداً في اثراء الاستهلال))[٩].

أما استهلالات المناجيات الأخرى فترتبط بخارجها عن طريق ما تضمنه فعل الإمام الجواد ﷺ من اعتماد هذه النصوص لكفاية مؤونة الحياة بأحوالها ومتطلباتها

المختلفة ، فضلاً عن دلالة التسمية التعضيدية لهذه الصلة ، فهي «وسائل» ناجعة دائماً لبلوغ مسائل هي من ضرورات الحياة في كل وقت ولا شكّ في أن اشباع بعض حاجات الإنسان اليومية تتطلب إسراعاً في ذلك بشكل مباشر ، وكأن استهلالات المناجيات قد جاءت لتجسد هذا المعنى ، فهي تنماز عما هو معروف في أدب المناجاة من البدء بالتمجيد والتحميد والثناء على المولى تبارك وتعالى ، ثم تنتقل بشكل متدرج إلى بيان الحاجة وبسطها ، فتكاد تكون جميع استهلالات المناجيات مبتدئةً بطلب الحاجة بشكل مباشر بطريقة تماثل الواقع ، ولهذا التماثل وقع نفسي ايجابي لدى الداعي / المتلقي ، فهو يشبع حاجته إلى التعجيل بنيل المسائل الذي ترسمه رغبته ونفسه التواقة للتلبية والاجابة، ما دامت وسيلته في ذلك مناجاة الرازق والواهب والمنعم الحقيقي بهمس وتضرع خفي ، و سوف تبقى نفسه مسكونة بهذا الشعور طالما كانت هذه الوسائل زوّادته التي يستعين بها لتلبية حاجاته المادية والروحية.

ولعل مروراً سريعاً بنماذج من هذه الاستهلالات كافٍ للتمثيل على ما نقول ، فنقرأ من ذلك استهلال (المناجاة للاستخارة) :

((بسم الله الرحمن الرحيم. اللهمّ إنّ خيرتك فيما استخرتك فيه تُنيل الرغائب ، وتجزل المواهب ، وتغنم المطالب ، و تطيب المكاسب ، وتهدي إلى أجمل المذاهب ، وتسوق الى أحمد العواقب ، وتقي مخوف النوائب))[١٠]

ومن استهلال (المناجاة بالاستقالة) :

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ إنّ الرجاء لسعة رحمتك أنطقني باستقالتك والأمل لأناتك، ورفقك شجعني على طلب أمانك وعفوك))[١١]

وفي استهلال (المناجاة بالسفر):

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ إنّي أُريد سفراً فخر لي فيه ، وأوضح لي فيه سبيل الرأي، وفهّمنيه ، وافتح عزمي بالاستقامة ، واشملني في سفري بالسلامة ، وأفدني جزيل الحظ والكرامة))[١٢]

إن صلة هذه الاستهلالات بخارج النص يتجلى في حرصها على تنمية ثقة الداعي/ المتلقي بالله تبارك وتعالى ، وحسن الظن بكرمه ، وتريد في ظاهرها أن تجعل من ذلك محوراً تدور حوله طبيعة علاقة العبد بربه ، وأساساً لنظام مناجاته ودعائه ، فتكون هذه «الوسائل» اختزالاً للواقع وقد تحول إلى كلمات ذات عمق عبادي . وتندرج في مجمل سعي المؤمن إلى البناء الروحي ، متجاوزة محدودية الحاجة المادية ووقتيتها ، ذلك أنَّ ((السعي إلى الكمال الذي يطمح إليه الإنسان هو معيار هذا الإنسان في اكتشافه لمستويات الممارسة الجمالية في الوجود ، وكلما كان سعي الإنسان إلى الكمال مطلقاً ، كلما كانت مجالات الجمال التي يعيشها تنمو نحو المطلق وتسعى إلى فتح افاق جديدة في جمالية العيش والوجود . من هنا فمستوى السعي الكمالي ... دلالة على حركية أو جمود الوجود الانساني))[١٣] ، و ما تريده هذه المناجيات للمؤمن أن يجعل وجوده فاعلاً ، على الرغم من الصعوبات و هيمنة سلطة القمع والتضييق .

صلة الاستهلال بأجزاء النص الداخلية

ليس للاستهلال دلالة منفردة أو مستقلة عن غيره من أجزاء النص الأخرى ، بمعنى أنه سيرورة دلالية تتصل ببنية النص الكلية ، ويتبادل مع هذه الأجزاء أمر تشكّل الدلالة ، فكلا الطرفين يفيد من الآخر؛ إذ ((إن محتوى وأسلوب النص هما اللذان ولّدا مفردات الاستهلال، فالاستهلال نتاج للنص . وأن هذه المفردات تمتد داخل النص كخيوط السدى لتولد صوراً أو مفردات جديدة منبثقة منها . فللاستهلال بنية خاصة تتناسب وموقعه في أول الكلام أولاً ، وموقعه باعتباره حاملاً لنوى النص كلها ثانياً))[١٤] ، ولذا فهو يؤدي وظيفة المنبه القرائي للمتلقي ، يحرضه ويغريه بالاستمرار في قراءة النص واكتشافه.

إن مما يُفترض في بنية الاستهلال أن تكون قائمة على ترابط نصي ما بين وحداتها أو جملها، تجمعها وحدة الموضوع ، وتكون قوتها مركز امتدادٍ لصلات متفرعة تتشعب بين أجزاء النص ، فـ ((كل علاقة دلالية بين عنصرين أو أكثر بمثابة إشارة معينة أو علامة معينة ، تحيل إلى ترابط الوحدات ذاتيًا أو نصيًا ، وإلى معنى يؤثر بشكل كبير على الدلالة الكلية للنص، بعد مروره بهذه السلسلة من العلاقات ، التي لا يخلو منها أي نص تحكمه شروط الانتاج والتلقي))[١٥]، وما يلاحظ على استهلالات المناجيات العشر توافرها على أغلب هذه الخصائص، وإن قراءة للنصوص بأكملها تكشف عن أنّ بنية الاستهلالات بنية توافقية؛ بمعنى توافق نمط التركيب لجمل الاستهلال مع بنية التركيب لبقية أجزاء النص ، في المستويات المختلفة. وهو ما حقق فضاءً متجانساً في مكوناته، بطريقة تمنح نفس الداعي/ المتلقي ارتياحاً ليعبر عن حاجته عبر مسار متصل لا يتغير اتجاهه . فدلالات الجمل المتوالية للاستهلال ترتبط ارتباطاً قوياً بما بعدها في النص ولا تخرج الجمل عن وظيفتها

السياقية المألوفة. فـ((بنية الاستهلال الأسلوبية تتردد داخل النص على شكل جملة متشابهة له ذبذبات أسلوبية تتكرر فتكون هذه الذبذبات بعض المفردات أو الصور أو النغمة الأسلوبية الشائعة ، ... فإذا كان الاستهلال يعتمد بنية بلاغية معينة على النص أن يحمل البنية ذاتها ترديداً في داخله ... وهكذا يتحول. .. الاستهلال من كونه جملة مبتدأ إلى جملة بناء أساس))[١٦] . وفي ضوء ذلك ، سنحاول الوقوف عند بعض الظواهر الأسلوبية للاستهلال التي ساعدت على إثراء صلته ببنية النص الكلية ، ومنها :

١ـ السجع

يعدّ السجع من الظواهر التعبيرية التي تعتمد في الكتابة لتؤدي وظائف جمالية ودلالية مختلفة، تتجاوز وصفه السطحي في معناه اللغوي ؛ ((أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي))[١٧] ، أو المعنى الاصطلاحي له الذي أكد على طبيعته الايقاعية بطريقة مقاربة لمعناه اللغوي، كما في تعريفه لدى ابن الأثير ـ على سبيل المثال ـ من أنه ((تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد))[١٨] ، وهو من خلال ما يتخذه من نمط شكلي متنوع ، إذ أن منه ما يكون قصيراً من لفظتين حتى العشر ، وما زاد عن ذلك يكون طويلاً ، يحقق نوعاً من التماسك النصي إذا ما تضافر ذلك مع وحدة الدلالة . و من الواضح جداً توظيف المناجيات العشر للسجع ، بشكل منتظم في وحدات كل نص ، من ذلك نقرأ في استهلال (المناجاة بطلب الحج) :

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ ارزقني الحجّ الّذي فرضته على من استطاع اليه سبيلاً. واجعل لي فيه هادياً واليه دليلاً))[١٩]

وتتوالى الجمل باسترسال متواصل، عل هذا النحو ، فما بعدها لا يكاد يختلف في الحرص على تسجيع الجمل ، وهو ما يثري تواصل الإيقاع المتوافق مع تواصل الطلب في المناجاة ككل، في موضوع واحد هو التوفيق للحج واداء مناسكه بوعي وفهم لعمق هذه المناسك وأبعادها التربوية والروحية . فما بعد ذلك متصل بالاستهلال: ((وارزقني ربّ الوقوف بين يديك ، والإفاضة إليك وأظفرني بالنجح بوافر الربح . واصدرني رب من موقف الحج الأكبر إلى مزدلفة المشعر، واجعلها زُلفة إلى رحمتك ، وطريقاً الى جنّتك ، وقفني موقف المشعر الحرام ، ومقام وقوف الإحرام))[٢٠] .

وهنا تفرض وحدة الموضوع ، وتفاصيل أداء مناسك الحج المرتبطة ببعضها في الواقع ، على نحو تراتبي توقيفي في العبادات ، تفرض أن يقترب تسجيع الجمل مصاحباً لما يمكن أن نسميه بالمجاورة التفصيلية ، التي يكون فيها تركيز العبارة لازمة أسلوبية ، كي تحافظ على التدفق التعبيري وانسيابيته .

٢ـ الإزدواج

وهو مقترن بالسجع من ناحية ضروة التماثل في الايقاع ما بين جملتين ، فـ ((يكون الجزآن متوازنين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه))[٢١] ، وغير خاف ما للتعادل ما بين جملتين من وقع لطيف في نفس القارئ ، و أثر فاعل على مستوى بنية النص ، وبالخصوص إذا ما كان النص معتمداً ذلك في تركيب جمله كلها ، ومن ذلك ما نلاحظه في المناجيات العشر ، فلا تكاد تخلو مناجاة مما أشرنا إليه ، نقرأ في استهلال (المناجاة في طلب الرزق) :

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ أرسل عليّ سجال رزقك مدراراً ، وأمطر عليّ سحائب إفضالك غِزاراً ، وأدم غيث نيلك اليّ سجالاً ، وأسبل مزيد نعمك على خلّتي إسبالاً ، وأفقرني بجودك اليك ، وأغنني عمّن يطلب ما لديك))[٢٢]

ولعل لموضوعة المناجاة هنا أثراً في ذلك ، فالنفس الإنسانية تطمح إلى أن يكون رزقها متزناً ، متسماً بالتعادل والثبات ، الذي ينعكس على ثبات الحال وعدم التقلب والاضطراب ، ومن ثم ستعزز إيقاعية التعادل والتوازن في الجمل معنى الاستقرار النفسي وتشيع جواً من الطمأنينة، فتحقق الجملة الأولى (أرسل علي سجال رزقك مدراراً) تعادلاً مع الجملة التي تليها (أمطر علي سحائب إفضالك غِزاراً) ، مع ملاحظة أن طول الجملتين النسبي قد أسهم في تعزيز فضاء السكينة ، والاطمئنان بنزول الرزق ودوامه. وسنلاحظ ارتباط هذا المعنى ببقية أجزاء النص على نحو واضح ؛ فنقرأ ما يماثل ذلك في الازدواج بقوله عليه السلام:

((سهّل ربّ سبيل الرزق اليّ ، وثبّت قواعده لديّ ، وبجّس لي عيون سعته برحمتك، وفجّر أنهار رغد العيش قبلي برأفتك ، وأجدب أرض فقري ، وأخصب جدب ضرّي ، واصرف عنّي في الرزق العوائق ، واقطع عنّي من الضيق العلائق))[٢٣]

وفي موضع آخر قريب من خاتمة المناجاة نفسها :

((واقبض عنّي سوء الجدب ، وابسط لي بساط الخصب ، واسقني من ماء رزقك غدقاً ، وانهج لي عميم بذْلك طُرُقاً))[٢٤] .

وهكذا لا ينفصل الاستهلال في سماته هذه عن النسيج النصي ؛ فليس له وجود مستقل فعلياً ، إلا من ناحية الموقع من النص ، بوصفه مبتدأه .

٣ـ التكرار

يمتاز التكرار بتعدد أنماطه وصوره ، مما جعل منه كثير الحضور بوصفه آلية أسلوبية هامة في النصوص الإبداعية على نحو عام ، وفي أدب الدعاء والمناجاة على نحو خاص. فهو ((تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير، بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصده الكاتب في شعره ونثره))[٢٥]، ولا شكّ في أن وظيفة التكرار لا تقتصر على ما يؤديه من دور إيقاعي في النص ؛ فله دور وظيفي دلالي لا ينفصل عن الدور الإيقاعي. ولعل من أبرز أنماط التكرار في المناجيات؛ تكرار التركيب الذي يمس بنية النص ، مثلما يؤثر في دلالاته؛ إذ يتكرر تركيب بعض الجمل في الاستهلال، ويظهر ثانية أو أكثر في أجزاء أخرى من النص، ليحقق ترابطاً نصياً ودلالياً في بنية الكلية للنص . ويكون تكرار التركيب ((أدل على الانفعال ، من تكرار اللفظ وحده ، فالنفس أميل إلى ترجيع النغم الطويل ذي التساوي الزمني الذي هو نتاج تساوي ألفاظ التراكيب المكررة المتشابهة في صيغتها، غالباً))[٢٦] .

من ذلك ما نجده في استهلال (المناجاة بطلب التوبة) :

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ إني قصدت إليك بإخلاص توبة نصوح ، وتثبيت عقد صحيح ، ودعاء قلب قريح وإعلان قول صريح))[٢٧]

وهنا تتوالى أربع جمل ، على نحو تركيبي متماثل : (إخلاص توبة نصوح / تثبيت عقد صحيح / دعاء قلب قريح / إعلان قول صريح) ، ونلاحظ فيها ايجازها اللفظي وكثافتها وحركيتها ؛ فهي تحافظ على تراتبية فعل التوبة الذي يبدأ من الجوانح ، ليظهر ويتجسد في الجوارح ، يبدأ بالإخلاص في طلب التوبة والعزم

على ترك الذنوب ، مشفوعاً بعقيدة ثابتة صحيحة ، ليتجلى فيها بعد بدعاء وقول وتوجّه . ويمتد هذا النمط من التكرار إلى داخل النص لنقرأ في مقطع منه :

((وقابل ربّ توبتي بجزيل الثواب ، وكريم المآب ، وحطّ العقاب ، وصرف العذاب ، وغُنم الإياب ، وستر الحجاب))[٢٨]

وبكل سهولة ، يلاحظ القارئ التماثل في تركيب الجمل وتكراره ، ومثلما امتازت جمل الاستهلال بالإيجاز والتكثيف ، تتحقق المزايا ذاتها في جمل هذا المقطع ، وتتبين الدلالة من الجمل التي جاءت قصيرة، متكونة من كلمتين فقط ، لتجسد رغبة الداعي في سرعة الإجابة الإلهية في المغفرة وصرف العذاب ، في حال يستشعر فيه الداعي دنو العقاب وشدته ، ويستلزم ذلك التعجيل في الطلب عبر جمل سريعة .

ومن أنماط هذا التكرار أيضاً ، نقرأ في استهلال (المناجاة بكشف الظلم) :

((بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ إن ظلم عبادك قد تمكّن في بلادك ، حتّى أمات العدل ، وقطع السبل ، ومحق الحقّ ، وأبطل الصدق ، وأخفى البرّ ، وأظهر الشرّ ، وأخمد التقوى ، وأزال الهدى ، وأزاح الخير ، وأثبت الضير ، وأنمى الفساد ، وقوّى العناد ، وبسط الجور ، وعدى الطور))[٢٩]

وهنا تتوالى الجمل في وصف تنويعات فعل الخراب والإفساد الذي تمكن في الأرض ، عبر فعل سريع ، متجسداً بجمل قصيرة موجزة . وحين نتتبع امتدادات جمل الاستهلال هذه في بقية نص المناجاة ، نجد مثالها في الفعل المعاكس، الذي يطلب الداعي من الله تعالى أن يحققه ويبسطه في إزاحة الظلم عن الأرض والناس :

((وأمت حياة المنكر ، ليؤمَن المخوف ، ويسكن الملهوف ، ويشبع الجائع ، ويحفظ الضائع ، ويأوى الطريد ، ويعود الشريد ، ويغنى الفقير ، ويجار المستجير

، ويوقّر الكبير ، ويُرحم الصغير ، ويعزّ المظلوم ، ويذلّ الظالم ، ويفرّج المغموم ، وتنفرج الغمّاء ، وتسكن الدهماء ، ويموت الاختلاف ، ويحيى الائتلاف ، ويعلو العلم ، ويشمل السلم))[٣٠]

تخلق الأفعال في هذا المقطع جواً بديلاً ، تتجلى فيه مظاهر الرحمة الإلهية ، ونقرأ على نحو مفصل في تبدل الأحوال دلالة التيقن بالإجابة ، ليستطرد ذهن الداعي في تخيل ملامح الحياة الآمنة ، بكل صورها . ذلك أن المناجاة تقع في مقام تواصلي عبادي ، تكون فيه ذات الداعي/ المتلقي أكثر ميلاً لاستعمال التكرار وتوظيفه بطريقة ناجعة ، فالإلحاح في طلب الحاجة من ملازمات الدعاء والمناجاة ، بل هو من آدابها العبادية .

وهكذا يعمل تكرار التركيب في الاستهلال وامتداده في بعض أجزاء النص الأخرى ، على تحقيق امتداد منتظم للجمل ، وتكثيف للمعنى المراد ، عبر تنويع ظاهري ، لا يبتعد عن جوهر فكرة المناجاة وجوها الخاص ، ويحقق كذلك امتداداً في الإيقاع بشكل جاذب للقارئ ، وكل ذلك مقرون بموضوع المناجاة ، وطبيعة الحالة الشعورية التي يعيش تحت تأثيرها الداعي . ((ومتى ما توجه النظر إلى النص الأدبي على أنّه وحدة نسيجية مترابطة تتناسب فيها العلاقات العضوية لتكون كلا موحدًا يشد بعضه بعضًا ويؤول بعضه إلى بعض... أمكن أن ندرك القيمة التي ينهض بها الاستهلال في الايذان والتلميح بالقابل من الوظائف والأحداث))[٣١] ، فالجو الذي يسهم في خلقه التكرار عبر جمل الاستهلال ، يمهد لرتابة إيجابية ، لأنها متحركة ممتدة ، تضغط باتجاه الحفاظ على انشداد نفسي واستجابة روحية مع أجواء الخلوة في المناجاة .

الخاتمة

لقد اكتسبت نصوص مناجيات (الوسائل إلى المسائل) خصوصيتها من ارتباط طبيعة بنائها بموضوعها وسياقها الخاص، وهو ما تجلى في (الاستهلال) الذي يعد من أهم أجزاء النص الأدبي . وقد انتهى البحث إلى ما يمكن إيجازه بأمرين :

١ـ ارتبطت استهلالات المناجيات العشر بالسياق الثقافي الخاص الذي ظهرت فيه النصوص ، وشكّل هذا الارتباط موجهاً قرائياً للداعي ، وهيأ للنصوص قاعدة تداولية واسعة ، بوصفها «وسائل» المؤمن لحوائجه الدنيوية والأخروية . ومن جانب آخر انعكست صلة الخارج في استهلال المناجاة على نحو شكلي وموضوعي ، تجلى في بناء الجمل وآليات الكتابة الموظفة فيها ، ومحورية شؤون الحياة موضوعاً لها.

٢ـ تجلت صلة الاستهلال بداخل النص ، في الجانبين البنائي والدلالي ، فكانت له وظيفة هامة في البنية الكلية لنص المناجاة ، واعتمدت المناجيات في جمل استهلالاتها على آليات أسلوبية منها : السجع ، والإزدواج ، والتكرار . وكان لكل واحدة منها امتداد وظيفي داخل نسيج النص الكلي ، فتجاوز توظيفها في الكتابة ما تخلقه من جمالية إيقاعية إلى عملية تضفير الدلالة في النص بأكمله ، وهو ما جسد قدرة النص في تمثل واقع حاجات الإنسان المادية والروحية ، على شكل جمل متدفقة ، امتازت بالتركيز اللفظي والترابط النصي ، وقد أثرَتْ ذلك ويسّرتْ له وحدةُ الموضوع الذي اختصت به كل مناجاة من المناجيات العشر.

الهوامش

١- ينظر : معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير : د. رجب عبد الجواد ابراهيم ، دار الآفاق العربية – القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢ : ٩٢.

٢-مهج الدعوات : السيد ابن طاووس، دار المرتضى – بيروت ، ط١، ٢٠٠٨: ٢٥٥ وما بعدها.

٣-منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط٣ : ٢٩٦.

٤- الرأي لابن قيم الجوزية نقلا عن : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د.أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٨٦، ج١ : ٣٣.

٥-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥: ٥٦٨.

٦-الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي: ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط١، ١٩٩٣ : ٢٦ .

٧-المصدر نفسه : ٩٦

* النص الموازي أو المناص كما يعرفه (مارتان بالتار) هو : ((مجموع تلك النصوص التي تحيط بالنص او جزء منه ، تكون مفصولة عنه ، مثل عنوان الكتاب ، وعنوانات الفصول والفقرات الداخلة في المناص ..)) . نقلاً عن :

عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) : عبد الحق بلعابد ، تقديم : د. سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ : ٣٠

٨- مهج الدعوات : ٢٦٠ – ٢٦١

٩-الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي :٣١

١٠- مهج الدعوات : ٢٥٥- ٢٥٦

١١- المصدر نفسه : ٢٥٦

١٢-المصدر نفسه : ٢٥٧

١٣- محاولات في الشعري والجمالي: دراسات في قضايا النقد الأدبي : وجيه فانوس ، اتحاد الكتاب اللبنانيين – بيروت ، ١٩٩٥م: ٥٧.

١٤- الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي: ٢٥ -٢٦.

١٥- الاستهلال في شعر القصيبي مقاربة نسقية تحليلية : البندري معيض عبد الكريم ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية اللغة العربية / جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٣هـ/ ١٤٣٤هـ: ١٠٦ – ١٠٧.

١٦- الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي: ٢٧.

١٧- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي ، دار الفكر – بيروت ط١، ١٤١٤ هـ ، ج ١١ : مادة سجع.

١٨- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، د. ط. ،ج١ : ١٩٥.

١٩- مهج الدعوات : ٢٦٠.

٢٠- المصدر نفسه .

٢١- كتاب الصناعتين :ابو هلال العسكري، تح :علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبي وشركاه – القاهرة ، ١٩٧١م: ٢٨٧.

٢٢- مهج الدعوات : ٢٥٨

٢٣- المصدر نفسه .

٢٤- المصدر نفسه .

٢٥- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة – بغداد ، ١٩٨٠م: ٢٣٩.

٢٦- النثر الصوفي ، دراسة فنية تحليلية : د. فائز طه عمر ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط١، ٢٠٠٤م : ٣٣٤ .

٢٧- مهج الدعوات : ٢٥٩

٢٨- المصدر نفسه.

٢٩- المصدر نفسه: ٢٦٠ - ٢٦١.

٣٠- المصدر نفسه: ٢٦١.

٣١- بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات، والوظائف، والتقنيات: د. ناهضة ستار، اتحاد الكتاب العرب – دمشق ،٢٠٠٣م : ٨٦.

المصادر والمراجع

أولاً : الكتب

١. الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي: ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط١، ١٩٩٣م.

٢. بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات، والوظائف، والتقنيات: د. ناهضة ستار، اتحاد الكتاب العرب – دمشق ،٢٠٠٣م.

٣. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي ، دار الفكر – بيروت ط١، ١٤١٤ هـ .

٤. جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة – بغداد ، ١٩٨٠م.

٥. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٦. عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) : عبد الحق بلعابد ، تقديم : د. سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ م.

٧. كتاب الصناعتين : ابو هلال العسكري، تح :علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبي وشركاه – القاهرة ، ١٩٧١م.

٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، د. ط.

٩. محاولات في الشعري والجمالي: دراسات في قضايا النقد الأدبي : وجيه فانوس ، اتحاد الكتاب اللبنانيين – بيروت ، ١٩٩٥م.

١٠. معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير : د. رجب عبد الجواد إبراهيم ، دار الآفاق العربية – القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م.

١١. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٨٦م.

١٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط٣ .د.ت.

١٣. مهج الدعوات : السيد ابن طاووس، دار المرتضى – بيروت ، ط١، ٢٠٠٨م.

١٤. النثر الصوفي ، دراسة فنية تحليلية: د. فائز طه عمر ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

ثانياً : الرسائل والأطاريح

١. الاستهلال في شعر القصيبي مقاربة نسقية تحليلية : البندري معيض عبد الكريم ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية اللغة العربية / جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٣هـ / ١٤٣٤هـ .